# أنا من ضيّع في الإعلام عمره

زاهر بن حارث المحروقي

تحتفل إذاعات العالم في الثالث عشر من فبراير من كلّ عام باليوم العالمي للإذاعة، تقديراً لما قدّمتَه هذه الوسيلة الإعلامية للبشرية من خدمات كثيرة، أبرزها التثقيف والتوعية ونقل الأحداث، وهي مناسبة للحديث عن الإذاعة وبعض من ذكرياتي معها؛ فبعد أن صرتُ مذيعاً بإذاعة سلطنة عُمان، سألني أكثر من شخص ممن كانوا يرتادون دكان أبي رحمه الله في روي، هل والدك يفتح الإذاعة لكي يتابعك وأنت تقرأ نشرات الأخبار؟!، وكانت إجابتي إنّ حبّ أبي للمذياع هو الذي جعلني أحب الإذاعة، لأنه كان متابعاً جيداً، وأزعم أنني منذ بداياتي الأولى كنتُ أعرف معظم مذيعي البي بي سي وكذلك برامجها، خاصة أنّ العم عبد الله بن خلفان المحروقي كان يتابع البي بي سي كثيراً ويفتح الراديو أمام دكانه في تنزانيا التي عشنا فيها فترة من الزمن؛ وفي كلّ يوم جمعة في الرابعة عصراً كان عمي عبد الله يُخرج الراديو خارج الدكان ويرفع صوته، عندما كانت البي بي سي تبث قراءة مجوّدة من القرآن الكريم بصوت الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد.

إنّ فترة استماعي المبكرة للإذاعة التنزانية لم تَخْلُ من مفارقات؛ حيث كانت تبث الإذاعة أحياناً برامج تهاجم فيها العرب - و«العربُ» هنا تعني العمانيين -، وتُلصقُ بهم كلّ التهم من الاستعمار إلى تهمة الاتجار بالرقيق وغير ذلك كثير.. وقد حدث في عام ١٩٦٨، أن تعرضتُ لحادث انقلاب سيارة، فدخلتُ المستشفى، وكنتُ في غيبوبة لأكثر من يوم، وفي اللحظات الأولى التي كنتُ أفيق فيها من الغيبوبة كان في الغرفة التي أنام فيها أكثر من مريض، وكان هناك راديو يبث تمثيلية، فخُيِّل لي أنّ الصراخ الذي أسمعه هو عبارةٌ عن هجوم على العرب، فسألتُ المرضى: هل هم يقتلون العرب؟!، فطمأنوني وهدأوا من روعي قائلين: لا. وعندما يفيق المريض من الغيبوبة، خاصةً إذا كان طفلاً؛ ويكون أولُ ما يتبادر إلى ذهنه أنّ الأفارقة يقتلون العرب، فلا يمكن أن يُلام بتاتاً؛ فهذا يدلُّ على أنّ المسألة مترسخة في العقل الباطن لهذا الطفل؛ لأنّ هذه النعرة غُرست في الأفارقة؛ ويكفي أننا نحن العرب كنا نغني في المدارس التي نتعلم فيها، أناشيد تدعو إلى قتل العرب.

لم أكن آنذاك أعلم أنّ الله سبحانه وتعالى قد قدّر لي أن أعمل في الإذاعة؛ فإذا هي المهنة الوحيدة التي امتهنتُها على مدى أربعة عقود كاملة، بدأت بما يشبه الصدفة، إذ عرض عليّ الشيخ ماجد بن سعيد المحروقي - الذي كان محرراً للأخبار في الإذاعة ومازال في وزارة الإعلام إلى اليوم - عرض عليّ أن أشتغل في الإجازة الصيفية في الإذاعة وذلك عام ١٩٧٧، حيث كانت الحكومة تعطي الفرصة للطلبة للعمل في الصيف، وقد تشجعتُ للفكرة، وهدفي أن أرى من أسمعهم يومياً، مثل الشقيقَيْن عبد الله وذياب صخر وحمد البلال وحسن سالم وعبد الرحيم عيسى وعبد العزيز السعدون وصبري صبيحة وصدِّيقة جعفر عبد العظيم وإبراهيم اليحمدي وغيرهم. وعندما بدأت العمل لم أدرِ أني سأقضي عمري كله في ذلك المكان؛ ولسانُ حالي يردِّدُ الآن بيت شعر محرّفاً لعلي محمود طه وهو «أنا من ضيّع في الأوهام عمره»، فأغيّر كلمة «الأوهام» إلى «الإعلام» ليصبح البيت «أنا من ضيّع في الإعلام عمره ، بمعنى أنّ تركيزي - والكثيرين من جيلنا - كان على العطاء على حساب أولويات حياتية كثيرة وعلى حساب العلاقات الأسرية والاجتماعية، لذا فقد وصلنا الليل

صورة في استيدوهات الاذاعة القديمة

بالنهار ونحن في العمل، وبعد كلّ تلك السنين صحونا من الحلم، فإذا بالركب قد سبقنا في كلّ شيء، ولم ننل من حطام الدنيا غير الفُتات، - وهذا هو حال الكثير من الإعلاميين في الوطن العربي، الذين ظنوا أنّهم سيُكافؤون بقدر عطائهم -؛ ( سبق أن كتبتُ في كتابي «بأعمالهم لا بأعمارهم» مقالاً يدور حول هذه النقطة عن الزميل الراحل سعيد بن محمد الزدجالي رحمه الله) وإذا كان الشاعر إبراهيم ناجي قال في رائعته «الأطلال» التي غنتها أم كلثوم، وإن في سياق آخر: وانتبهنا بعد ما زال الرحيق... وأفقنا ليت أنّا لا نفيق»، لأنّ تلك اليقظة قد أطاحت بأحلام الكرى، فإنّ ذلك هو حالنا نحن، عندما اكتشفنا بعد زمن أنّ العمر قد انقضى ونحن في أحلام الكرى، وليس أصعب على المرء أن يرى النور نذير شؤم، وأنّ الفجر كان بمثابة حريق، لأنه كشف الحقيقة:

«وإذا النور نذيرٌ طالعٌ .. وإذا الفجر مطلّ كالحريق».

ومع ذلك أستطيع أن أقول إنّ تجربتي في الإذاعة كانت تجربة ثرية، عاصرتُ فيها المؤسسين الحقيقيين للإعلام العماني بصفة عامة والإذاعة بصفة خاصة، واستفدتُ من عملي في إذاعة سلطنة عُمان





استفادة كبيرة، رغم أنّ الإنسان في لحظات معينة من حياته يحس أنّ حبَّه كان عشقاً من طرف واحد. ولكن ما نستطيع أن نقوله هو إنّ خبرتنا كانت قليلة، إلا أنّ حماسنا والتزامنا كانا كبيرين، لذا كانت فترة الثمانينيات من القرن الماضي - كما أعتقد - هي فترة ذهبية للإعلام العماني والإذاعة بالذات، وقد تكون برامج تلك الفترة دليلاً على ذلك، وهي الفترة التي شهدت بداية انطلاق برامج على الهواء؛ فكان هناك «البث المباشر»، وكذلك «صباح الخير يا بلادي»، كما أنها كانت الفترة التي شهدت خروج الميكروفون من القرم حيث مبنى الإذاعة، لتجوب فرقٌ إذاعية مناطق عمان المختلفة وتقدم تغطيات شاملة عن التاريخ والحاضر والعادات والتقاليد وغيرها، ولا نستطيع أن نغفل الخبرات العربية الكبيرة في مجال الإعلام الذين ضمهم مبنى الإذاعة والتلفزيون. وفي ظني أنّ فترة برنامج «البث المباشر» على مدى خمس سنوات من عام ١٩٨٤ وحتى عام ١٩٨٩ - وإن كانت شهادتي فيها مجروحة كوني كنتُ مشرفاً على هذا البرنامج في تلك الفترة - كانت فترة ثرية للإذاعة، إذ ارتفعت نسبة المتابعة كثيراً؛ وخيرُ شاهد على ذلك أنّ بريد رسائل القراء في الصحف المحلية كان انعكاساً لما يجري تناوله في البرنامج، وكانت نقاشات المجلس الاستشاري للدولة تدور حول ما يتم طرحه في البرنامج من قضايا. لكن ما يؤسف له أنّ تلك الفترة ذهبَت ولم يتم توثيقها، لا صوتياً ولا ورقياً، وهذا بالتأكيد من الأخطاء الكبيرة التي نعاني منها ليس في الإذاعة فقط وإنما في كلّ الميادين؛ فخلال السنوات الخمس تلك، استضفنا أسماء لامعة في سماء الوطن العربي في المجالات كافة، شملت الفنانين والكتّاب والمفكرين والأدباء؛ ومن الذين استضفتُهم عبر البث المباشر وبرنامج «ضيف الأسبوع»، د. سعيد بدوي عالِم الدراسات اللغوية، والشاعر فاروق شوشة، والصحفي مصطفى أمين، والفنان طلال مداح، ود.علي الدين هلال أستاذ العلوم السياسية الشهير، والناقدة السعودية د. هدى الدغفق. كما أني استضفت د. عمر عرتة غالب رئيس وزراء الصومال، في فترة كانت الصومال تُشغل بال الكثيرين، هذا غير استضافة الكتّاب والفنانين العمانيين. وقد حاولتُ في تلك الفترة أن أستضيف الكاتب محمد حسنين هيكل، وتواصلتُ في ذلك مع د. علي الدين هلال في القاهرة، إلا أنّ الرجل اعتذر بلطف. ومن أشهر اللقاءات التي أجرتها الإذاعة، ذلك اللقاء الذي أجراه الزميل خالد بن صالح الزدجالي مع د. عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطيء»، والموسيقار محمد عبد الوهاب، والفنانين نور الشريف ومحمود يس، وكذلك اللقاء الذي أجراه الزميل الراحل عبد الله بن سليمان الزدجالي مع الروائي نجيب محفوظ في حلقة خاصة خصصناها في البث المباشر للحديث عن فوز محفوظ بجائزة نوبل للآداب، وبالتأكيد فإنّ القائمة طويلة لا يمكن حصرها في مقال واحد.

لقد ضمّت الإذاعة والتلفزيون العمانيان في تلك الفترة كوكبة كبيرة من ألمع الإعلاميين العرب، الذين كان لهم دورٌ أساسي لوضع اللبنات الأولى لهذا الإعلام، منهم الأساتذة صبري صبيحة، أحمد الرزاز، يوسف حجازي، صبري يس، محمد مرعي، ممدوح سعد، زكريا شليل، أحمد أبو السعود، محمود المسلمي الذي يُعتبر حالياً من أشهر مذيعي البي بي سي، ومحمد رأفت وغيرهم؛ وإنْ أنسَ فلا يمكن أن أنسى صبري يس، الذي أخذ بيدي من اللحظات الأولى لعملي كمذيع إذ تولى تدريبي، وكان في أحيان كثيرة شخصاً قاسياً، ولكني تعلمت منه الانضباط وتقديس العمل، وكذلك زكريا شليل الذي درّبني على إجراء الحوارات الإذاعية، وقد عملنا معاً في برنامج «البث المباشر»، وقدّمتُ الكثير من البرامج التي كان يُعدُّها زكريا ويخرجها الراحل جمعة الخصيبي، مثل برنامج «حصاد ندورة الدراسات العمانية" و«كتابٌ من عُمان». وقد يكون أبو الوفا القاضي من أشهر المُعدِّين الذين تعاملوا مع الإذاعة والتلفزيون في مجال الإعداد، حيث أعدّ برامج قيِّمة، منها برنامج «الرسم بالكلمات» الذي قدمتُه مع الزميلة فخرية خميس، وكذلك أعدَّ برنامجاً صباحياً أخرجه المخرج يوسف حبيب، وكان أشهر برنامج أعده هو برنامج «من دوحة الشعر العماني»، حيث قرأ الأشعار الممثل الكبير عبد الله غيث، أما تلفزيونياً فقد أعدَّ مسلسل «الشعر ديوان العرب»، ولم يكن الوحيد في مجال الإعداد، إذ كان هناك الراحل إبراهيم شعراوي الذي كان طاقة متجددة دائماً في الإعداد الإذاعي وترَك الكثير من البرامج.

هناك ملاحظة جديرة بأن تُطرح، وهي أنّ الإعلام العماني استطاع أن يجذب إليه في تلك السنوات، كوكبة مميزة من الإعلاميين العرب تولوا مناصب كبرى عندما عادوا إلى بلدانهم، مثل محمد مرعي الذي تولى رئاسة إذاعة صوت العرب في القاهرة، ونانيس صلاح الدين التي رأست إذاعة الشرق الأوسط، وإحسان رمزي الذي أصبح أميناً عاماً لوزارة الإعلام الأردنية، وصالح أرتيمة الذي ترأس بعد ذلك الفضائية الأردنية، وأحمد أبو السعود الذي رأس إحدى الإذاعات الإقليمية في مصر، وإبراهيم الوكيل الذي صار رئيساً لقطاع الأخبار في مصر. أما عن العمانيين فلم يكونوا أقلَّ شأناً من تلك الخبرات العربية، ويمكن أن نذكر منهم الأساتذة أحمد الفلاحي، عبد الرحيم عيسى، هلال السيابي، علي المجيني، حماد الغافري، حمد البلال وغيرهم كثيرين، وقد كانت الإذاعة مصنعاً للرجال، فخرج منها أكثر من وزير عُماني مثل علي بن ماجد المعمري، يحيى بن سعود السليمي، حمد بن محمد الراشدي، ويوسف بن علوي بن عبد الله، وإبراهيم بن حمود الصبحي، إضافة إلى وكلاء ومستشارين وسفراء وضباط. ومع وجود تلك الكفاءات كانت الإذاعة في أوج تألقها وكانت الفترة الإخبارية في الساعة الثالثة ظهراً بعد برنامج البث المباشر مباشرة قوية جداً، بوجود برنامج سياسي تحليلي يومي باسم «العالم اليوم» يعده ألمع محلل سياسي مرّ على صوت العرب وإذاعة الرياض وإذاعة سلطنة عمان ثم عمل في أبوظبي هو الأستاذ محمد عدس، وكان يعقب البرنامج أقوال الصحافة العربية والعالمية الصادرة في اليوم نفسه.

لقد تعددت وسائل التثقيف هذه الأيام، ولم تعد الإذاعات تقوم بذلك الدور التثقيفي، بعد أن اختفى ذلك الجيل الكبير من الإذاعيين، وكذلك بعد أن اختفت البرامج المهمة وانتشرت مكانها برامج سريعة لا تخدم المستمع، هي عبارة عن برامج «سندويتشات».. وفي رأيي فإنّ ثقافة الناس أصبحت أيضاً ثقافة الهضم السريع، مثل «السندويتشات»؛ فبالرغم من توسع وسائل الاتصالات وسهولة الحصول على المعلومات؛ إلّا أنّ ثقافة الناس تراجعت كثيراً. ويبقى أنّ الإذاعات أمام تحد كبير الآن مع وجود البدائل الكثيرة، وهو التحدي نفسه الذي يواجه التلفزيونات والصحف الورقية. وهو كذلك التحدي الذي يجعلني أتعاطف مع كلّ زميل من جيلي قُدِّر له أن يكون شاهداً على زمنَيْن إعلاميَيْن مختلفَيْن، ويقف على البون الشاسع بينهما وهو يردد داخله بحسرة: «أنا من ضيّع في الإعلام عمره».